

يوسف الصواني

القومية العربية والوحدة في الفكر السياسي العربي

ترجمة سمير كرم

(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣). ٢٥٧ ص. (سلسلة أطروحات الدكتوراه؛ ٤٧)

مفيد الزيدي

أستاذ التاريخ في جامعة عمر المختار، البيضاء - ليبيا.

- ١ -

ومقدمة نظرية منهجية تناول فيها الباحث الفكر القومي العربي وحاجته إلى تقويم جديد.

في الفصل الأول، وهو بمثابة مقدمة نظرية ومنهجية، يستعرض الباحث الفكر القومي العربي من خلال حاجته إلى تقويم جديد، وقد تطرق فيه إلى الأدبيات في هذا الشأن، ثم المنهجية والمغزى من الدراسة وتحليل إسهامات المفكرين العرب البارزين (مصر والمغرب ولبنان بخاصة)، وقدم خلاصات في مفاهيم الأمة العربية والإسلامية، والعلمانية، والأقليات، والديمقراطية، لإثبات وجود مقاربات جديدة لهذه المسائل في اكتساب الطابع القومي الذي يتطابق مع وقائع المجتمع العربي وتاريخه، وقد نظر إلى القومية العربية على أساس واقعي.

ويركّز هذا الفصل على حقيقة أن الفكر العربي في ثمانينيات العقد الماضي كان له فهم جديد لمسائل القومية العربية والوحدة العربية، وقد اعتمد على المناقشة والتحليل في

شهد الوطن العربي حركة قومية عربية منذ القرن التاسع عشر، وكان هدفها الأساسي تأكيد وجود الأمة العربية من خلال روابطها القومية المشتركة، كاللغة والتاريخ والحضارة والجغرافية، ثم الهدف الآخر المهم في أن تكون هذه الأمة العربية الواحدة جامعة. وقد سعت الحركة القومية العربية بعد ضعف وانحلال الدولة العثمانية إلى تحرر العرب من الهيمنة الغربية الأوروبية الكولونيالية، وعندما تحقق ذلك لم يكن الواقع تجسيدا للحالة الجديدة، ولهذا تحالف القوميون من أجل إنهاء أجل التجزئة السياسية، وبناء دولة، أو أمة واحدة عربية.

من هنا يأتي هذا الكتاب للأكاديمي الليبي يوسف الصواني، وهو في الأصل أطروحة للدكتوراه من جامعة لندن في انكلترا، في محاولة لتجسيد مسيرة القومية العربية والوحدة في واقع الفكر السياسي العربي. الكتاب يحتوي خمسة فصول

النماذج القديمة والجديدة في الفكر القومي العربي خلال ثمانينيات القرن العشرين، وقد تركزت المناقشة على الإسهامات هذه التي تتعلق بمسائل الأمة العربية والقومية العربية والإسلامية والعلمانية والأقليات والديمقراطية.

في الفصل الرابع تناول الباحث موضوع «القومية العربية ونظام الدولة العربية»، فتطرق إلى الدولة الإقليمية القطرية، والفكر القومي العربي ومفهوم الدولة، وتكريس نظام الدولة، والأصول الطبيعية لنظام الدولة العربية، وجدل الوحدة والتجزئة، وأزمة الدولة الإقليمية القطرية. ويرى الباحث أن العلاقة بين نظام الدولة وهدف الوحدة العربية تعكس اهتمامات وإسهامات جديدة في التيار الجديد في الفكر القومي العربي، ونشوء أزمة صعبة ودائمة تزداد عمقاً. إنها أزمة الدولة العربية التي تجبرها الحاجة على القبول بوحدة عربية من نوع ما، وقد برهنت الدولة العربية على المنطق الكامن وراء وجودها، وإلا لكانت انهارت منذ زمن بعيد. وحتى الآن، فإن هذا المنطق أقوى من منطق الوجوديين، ولذلك، فهو حتى الآن المنتصر. ويتوصل الباحث في هذا الفصل إلى أن التيار الجديد في الفكر القومي العربي لا يحققر النموذج الجديد للدولة الإقليمية القطرية ولا ينظر فيها، وأنه يقوم على إدراك حقيقي للواقع، ويحاول أن يفسره وأن يستخدمه لمصالحه وأهدافه. وتعكس مساهمات المفكرين العرب الذين ناقشهم الباحث في هذا الفصل محاولة مخصصة لتفسير نظام الدولة وعلاقته المعقدة مع المجتمع، وتعبّر عن جهد واضح للتخلي عن الطرح التقليدي والدعوة في النموذج الجديد إلى التجاوز والاستيعاب والتكيف.

الفصول الأخرى، وهو يرسم الخطوط العامة لاستنتاجات البحث، ويسعى لإثبات طبيعة الفكر القومي العربي في عقد الثمانينيات مقارنة بالفكر القومي العربي التقليدي..

في الفصل الثاني، بعنوان: «القومية العربية وفكرة قيام أمة عربية متحدة»، تحدث الباحث عن القومية ملخصاً الأيديولوجية من حيث الأمة كمفهوم، والهويات القطرية والأقليات، ومفهوم الهوية العربية، كاللغة الواحدة والأمة والثقافة العربية، والوحدة العربية، والعروبة الجامعة كالأمة الواحدة والدولة الواحدة، والدولة العربية الجامعة بدل الدولة الإقليمية الشعبوية. ثم نقد الفكر القومي العربي التقليدي، حيث يرى أن الفكر القومي العربي كان قبل الثمانينيات من القرن الماضي ينغمس في مناقشات ومداولات لا نهاية لها في إطار الدولة، ويعبر عن ميل قوي نحو الدولة، والفصل بين الدولة الإقليمية والقطرية، والدولة العربية الجامعة، ويهمش التحليل الشامل العلاقة القصوى بين الدولة والمجتمع المدني.

أما «الفكر القومي العربي في ثمانينيات القرن العشرين: جدل النماذج القديمة والجديدة»، فهو عنوان **الفصل الثالث**، وتناول فيه الباحث جوهر الأمة العربية، والهوية العربية الجامعة، والمناقشات الجديدة حول اللغة والتاريخ والتعددية والدولة والسوسيولوجيا، ثم الأمة العربية، وقد تطرق إلى مفاهيم قديمة وجديدة، ثم قدم شرحاً لوجهات النظر المختلفة عن العروبة والإسلام والعلمانية التي سماها الباحث المناقشة التي لا تصل إلى حل، ثم أورد موضوع الأقليات والديمقراطية. وفي هذا سعى الباحث إلى تفسير حال الجدل في

الأمل بإعادة التجريد لهذا التصور مرة أخرى. وفي هذا ينقل عن المفكر قسطنطين زريق أن الأمة العربية متورطة في معارك بناء الأمة واليقظة الحضارية، وأنه لا بناء قومياً إلا مع المضمون الحضاري الفاعل، ولا نهوض حضارياً ثابتاً من دون تكوين قومي، حيث تؤكد إسهامات ثمانينيات القرن الماضي هذه المفاهيم والأفكار الجديدة.

ويخلص الباحث في نهاية كتابه إلى أن الفكر القومي العربي شهد في عقد الثمانينيات من القرن العشرين حالة تميز تمثلت بإعادة إحياء دور القومية العربية في الكتابات التي تناولت العروبة، وكذلك أعيد تدوين الفكر القومي العربي وتجديده لكي يتوافق مع المجتمع العربي والسياسة العربية منذ حرب حزيران/يونيو عام ١٩٦٧.

- ٢ -

نتوصل من خلال مراجعة هذا الكتاب إلى أنه عمل قيم وجهد كبير في مادة مهمة تكشف إشكالية بين الحنين إلى الماضي التقليدي ومشكلات الفكر القومي التقليدي، وبين مجالات تجديد هذا الخطاب وفق معطيات العصر والأزمات التي تواجه الأمة العربية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، مع مصارحة في الطرح والنقد والتحليل من قبل الباحث. ونرجو أن يكون هذا العمل الأساس للكتابة العربية في هذا الموضوع، بحيث تتبعه كتابات أخرى مكملّة تنتهج الخط نفسه من الوضوح والشفافية في طرح إشكاليات الواقع العربي.

نخلص من هذه الدراسة المهمة إلى ما

يلي:

أ - وجود إشكالية قائمة اليوم بين

أما في الفصل الخامس، فقد تناول الباحث موضوع «الفكر القومي العربي: مقدمات النموذج الجديد»، وفيه تطرق إلى تطور مرحلة ثمانينيات القرن العشرين وتراجع الفكر القومي العربي عن القومية العربية، وتوجهه إلى دروب جديدة وتفكير جديد. وقد نتج من هذا التخلي أن المفكرين العرب استطاعوا أن يشتركوا في تطوير نموذج جديد. أما في الموضوعات التي طرحها الباحث عن: مقدمات النموذج الجديد، والقومية العربية ونظام الدولة: من التصادم إلى التواءم، والوحدة العربية: تاريخ أم مستقبل؟، والوحدة العربية: طبيعتها وشكلها، ونهاية العروبة أم قومية عربية جديدة؟، فيتوصل الباحث فيها إلى حقيقة مهمة تؤكد إجماع أغلبية المفكرين العرب وغير العرب على أن القومية العربية لم تمت، وأن ما يمكن أن يكون قد مات هو المفاهيم الميتافيزيقية، وهذا بفسح المجال أمام ظهور مفاهيم جديدة قائمة على العقلانية، حيث تعطي الأخيرة الأولوية إلى المصالح وتستخرج دروساً من التاريخ. ويعتقد كثيرون أن القومية العربية ستظل حية، وهذا هو ما توصل إليه الباحث أيضاً، إلا أنها ستبدو في صورة تختلف كثيراً عن تلك التي كانت في الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات والستينيات من القرن العشرين، إذ ستكون هناك قومية عربية جديدة تماماً.

ويعتقد الباحث أن إسهامات الثمانينيات من القرن الماضي تشير بوضوح إلى أن المستقبل لن يسمح بظهور أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة، أو ما يشابهها، لأنها سوف تختفي، وأن فكرة العروبة ليست انعكاساً لاستمرار التصور القديم للهوية، أو

تحول دون نجاح المحاولات الوحدوية، حتى الثنائية منها.

و - إن الخيار للوحدة هو ليس القوة، بل الديمقراطية التي تسمح للدول بأن تحافظ على وجودها ولا تزول، أي أن النموذج الجديد هو الاستيعاب والقبول.

ز - إن جميع الدراسات والمناقشات الحالية تشير إلى أن القومية العربية لم تمت، بل تمر بإعادة هيكلة فكرية وأيديولوجية، وأنها آخذة بالتكوّن والتبلور من خلال إسهامات الثمانينيات في تجديد الفكر القومي العربي، وأن العروبة الجديدة لا تهدف إلى اختراع أيديولوجيا أخرى أو عقيدة تؤكد الانسجام بين العرب، لكنها في الوقت نفسه تطيح بكل فروض القطرية.

ح - إن النموذج الجديد يحتاج إلى التخلص من كل النواقص النظرية والمعرفية والأيديولوجية التي تميز النموذج القديم، إذ ما زال بالإمكان اكتشاف بعض بقاياها في النموذج الجديد.

ط - إن التطورات التي حدثت عام ١٩٩٠ وما بعدها، والصراع العربي - الإسرائيلي، ومحاولة تصفية القضية الفلسطينية - المسألة المركزية للأمة العربية كما عبّر عنها الفكر القومي التقليدي - كانت تطورات درامية من حيث تأثيرها في الفكر القومي العربي، وسيظل الفكر أكثر تجديداً وحيوية لمواجهة تحديات العصر من العولمة والإمبريالية الجديدة، والهيمنة الأمريكية على الشعوب الحرّة، وهي دليل على وحدة العرب أمام هذه التحديات، حتى الإقليمية منها، التي تحاول أن تسليخ الهوية العربية والعروبة من جذورها الشعبية □

تبارين: الأول قطري وإقليمي يرى أن القومية انتهت وتلاشت مع حرب عام ١٩٦٧ ولم تستطع أن تفعل شيئاً، وأن أحداث الكويت عام ١٩٩٠ وما أعقبها كان الضربة القاصمة للفكر القومي العربي. والثاني قومي عربي يؤكد أن القومية لم تمت وما زالت باقية، وستظل ما دام العرب والأمة موجودين على الرغم من حالات الإخفاق أو الانكسار، بل إنه يؤكد أن الأمة، بحسب قاعدة التحدي والاستجابة، تقوى أكثر وتزداد إيماناً مع كل تحدٍّ تواجهه.

ب - إن القومية العربية، على الرغم من أنها فقدت هيمنتها على السياسات العربية، فقد تلاشت فكرة موت القومية العربية، وأن أهم ما تمّ التوصل إليه هو أن تجديد شباب القومية العربية آخذ بالتكوّن، وأن الفكر العربي آخذ بالتبلور من خلال تطور القومية العربية والوحدة العربية من نماذجها القديمة إلى النماذج الجديدة.

ج - إن الفكر القومي كان مجبراً بحكم الظروف التي مر بها على أن يعيد التفكير في مفاهيمه وأفكاره من خلال إسهامات المفكرين العرب مع نهاية حرب ١٩٦٧ لوضع خطاب قومي عربي لا يعتمد المثالية، بل الواقعية السياسية.

د - ظهور تيار يدعو إلى المستقبلات ومراجعة الفكر القومي العربي من دون الحنين إلى الماضي، بل البحث عن رؤية مستقبلية تجديدية للفكر العربي.

هـ - إن الوحدة العربية ليست حلمًا غير واقعي، ولكن تظل له أسسه، ومعه الهوية والتاريخ العربي، على رغم الظروف وتعقيدات الأوضاع الإقليمية والدولية التي